مراثى الأندلس

للشعر الآندلسى خواصه التى تميزه من بقية تراث الشعر العربى . وليس من الصعب آن ندرك أسباب هذا الامتياز ؛ فوقوع الأندلس فى مشارف أوربا الجنوبية وظروفها الجغرافية والسياسية والاجتماعية ، وامتزاجها بتيارات التفكير والحضارات الأوربية ، وصراعها الطويل مع أسبانيا النصرانية ، هذه العوامل كلها أسبغت على الشعر الأندلسى ألوانه وخواصه التى يمتاز بها .

وكما أن الشعر الأندلسى يبدو فى مواطن الوصف والمديح والغزل فى ألوان زاهية نفيض رقة وطرافة وابتكاراً ، فهو يبدو فى مواطن الألم والتفجع فياض الكآبة والحزن . وتمتاز المراثى الأندلسية السياسية بروعة خاصة ، ويتمثل فيها كل مافى تاريخ الأندلس من المحن . ولم تصل المراثى القومية فى مجتمع اسلامى قدر ماوصلت إليه المراثى الأندلسية من روعة التعبير وشدة اللوعة وعمق التفجع. وإن منها مايزال يحتفظ حتى عصرنا بكثير من روعته ، ويثير فى النفس بالغ الألم والأسى .

وقد بدأت هذه الصبغة المحزنة تغلب على الشعر الأندلسى منذ أواخر القرن الخامس الهجرى، أى منذ تبدت مأساة دول الطوائف فى أطوارها المزعجة، ومذ بدأت أسبانيا النصرانية تنتزع القواعد الأندلسية العظيمة ، وأخذت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت على المنحدر تواجه خطر الانهيار القومى . وكان سقوط طليطلة فى يد الأسبان فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) أول ضربة مؤلمة أصابت الأندلس ، وكان أول محنة قومية حقيقية أثارت لوعة الشعر الأندلسى . ومما قيل يومئذ فى رثائها قصيدة طويلة هذا مطلعها :

لثكلك كيف تبتسم الثغور ... سروراً بعد ما يئست ثغور
أما وأبى مصاب هد منه ... ثبير الدين فاتصل الثبور (١)

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٢ — ٥٩٤ .

وينوه الشاعر فى مرثيته بطائفة من المعانى ، غدت فيما بعد من المعانى الشائعة فى المراثى الأندلسية ، تردد فيها بصور مختلفة ، منها البكاء على الوطن ، وما أصاب نور الاسلام من انطفاء ، وتحويل المساجد إلى كنائس ، وعلى تشريد المسلمين عن أوطانهم ، وفقدهم لحرياتهم . ووقوعهم فى أغلال الذلة والمهانة ، وسبى نسائهم وأولادهم ، وغيرها من المعانى المؤثرة التى تتعلق بقضية الوطن والدين .

وكان من أشهر المراثى الأندلسية فى ذلك العصر الذى اضطربت فيه أحوال الأندلس وظهرت عليها أسبانيا النصرانية ، وغزاها المرابطون بعد أن تظاهروا بانقاذها ، واستولوا على قواعدها وثغورها، وقضوا على دول الطوائف ، وقتلوا وأسروا ملوكها ، قصيدة ابن عبدون الشهيرة فى رثاء دولة بنى الأفطس ملوك بطليوس ، وكانت دولتهم من أزهى دول الطوائف ، وفيها ازدهرت دولة الشعر والأدب ، وكان زعيمها وآخر ملوكها محمد بن الأفطس الملقب بالمتوكل من أكابر العلماء والأدباء . ولما استولى المرابطون على مملكته (سنة ٤٨٧ هـ — ١٠٩٤ م) قتلوه وأولاده الثلاثة،ووضع فيهم وزير دولتهم عبدالمجيد ابن عبدون المتوفى سنة ٥٤٩ هـ وهو من أهل يابرة مرثيته الشهيرة التى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر

ومنها :

فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ماالليالى أقال الله عثرتنا ... من الليالى وخانتها يد العبر
فى كل حين لها فى كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن البصر
تسر بالشئ لكن كى تغرّبه ... كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر(١)

وتعتبر قصيدة ابن عبدون من غرر المراثى الأندلسية . وقد وضع لها ابن

(١) راجع قصيدة ابن عبدون بأكملها فى كتاب المعجب للمراكشى ص ٤٢ – ٦٠ .

بدرون المتوفى فى نحو سنة ٦١٠ ﻫ وهو من أهل شلب ، شرحاً قيا طبع غير مرة ، وهى تردد كثيراً من المعانى التى جرت عليها المراثى الأندلسية فى التنويه بعبر الدهر وغدره ؛ غير أنها خلت من النواح على مصير الاسلام ؛ لأن دولة بنى الأفطس لم تسقط فى يد النصارى ولكنها اسقطت فى يد دولة إسلامية أخرى.

ولما أخذت دولة الموحدين التى استولت بعد المرابطين على بلاد الأندلس فى الضعف والانحلال منذ أوائل القرن السابع الهجرى ، وأخذت القواعد الأندلسية الكبرى تسقط تباعاً فى أيدى النصارى ،ذكت دولة الشعر واضطرمت لوعتها ، وكلما سقطت قاعدة أندلسية توالت فى ندبها القصائد المؤثرة . وتجتمع فى هذه الفترة بالذات معظم المراثى الأندلسية الجامعة ، وكلها تبكى محنة الأندلس ومصير قواعدها فى بلاغة رائعة ، وأسلوب يفيض بالآلام والحسرات .

فمن ذلك قصيدة ابن الأبار القضاعى البلنسى وقد نظمها حينما دهم النصارى بلنسية (سنة ٦٣٥ ﻫ — ١٢٣٧ م) وأوفده أميرها أبو جميل زيان سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى سلطان تونس يستغيث به ويستنصره ، فأنشد ابن الأبار قصيدته بين يدى السلطان ، وفيها يعرض محن الأندلس وصريخها بأسلوب رائع ينفذ إلى سويداء القلوب ، وهذه بدايتها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة أجحاف نائبة ... تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الاشراك مبتسماً ... جذلان وارتحل الايمان مبتئساً
وصيرتها العوادى العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا (١)

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ وما بعدها . وفى أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٧ وما بعدها .

وقصيدة ابن الأبار هذه من أشهر القصائد الأندلسية السياسية . وفى مطلعها يتردد المغزى التاريخى الذى لبث أحقاباً يجمع بين الأندلس والمغرب ، ويؤكد ما بينهما من وشائج القربى والتضامن ، كما يؤيد حق الأندلس فى طلب العون والغوث من إخوانها فيما وراء البحر ، فى عدوة المغرب ، كلما لاح لها شبح الخطر الداهم على يد عدوتها الخالدة أسبانيا النصرانية . وقد لبث هذا التضامن شعار السياسة الأندلسية مذ شعرت الأندلس بضعف كفتها فى الجزيرة الأسبانية . ولما انهارت دوله الموحدين وقامت مكانها بالمغرب دولة بنى مرين اتجهت مملكة غرناطة الناشئة بأنظارها إلى تلك الدولة المغربية الجديدة ، ولبثت أكثر من قرن تكرر إليها الصريخ كلما اشتدت عليها وطأة العدو ، واستجاب بنو مرين لصريخها فعبروا البحر إلى الأندلس لانجادها مراراً .

ولما سقطت بلنسية فى يد النصارى (صفر ٦٣٦ هـ) عاد صريخ الأندلس يتردد عالياً بطلب الغوث والنجدة من سلطان تونس ابن زكريا الحفصى ،وعاد الشاعر يردد معنى ابن الأبار فى مرثية أخرى يبكى فيها سقوط بلنسية ومصائب الاسلام بالأندلس ، وإليك مطلعها :

نادتك أندلس فلب نداءهـا ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها ... من عاطفاتك ما يقى حوباءها
واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها ... تردد على أعقابهـا أرزاءهـا

ومنها :

تلك الجزيرة لا بقاء لهـا إذا ... لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحهـا ... واعقد بأرشية النجاة رشاءها
أشفى على طرف الحياة ذماؤها ... فاستبق للدين الحنيف ذماءهـا
حاشاك أن تفنى حشاشتهـا وقد ... قصرت عليك نداءها ورجاءها (١)

وكان سقوط بلنسية نذيراً بانهيار قواعد الأندلس الشرقية كلها وسقوطها تباعاً فى يد النصارى ، فسقطت شاطبة ودانية فى سنة ٦٣٨ هـ ، ولقنت وأريولة

---

(١) راجع هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٩ وما بعدها .

وقرطاجنة فى سنة ٦٤٠ هـ ، ومرسية فى سنة ٦٤١ هـ . وأما فى الولايات الشرقية فقد سقطت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة فى يد النصارى فى سنة ٦٣٣ (١٢٣٠م) وبياسة وأستجة والمدور فى سنة ٦٣٤ هـ ، وجيان فى سنة ٦٤٤ هـ ، وأشبيلية أعظم القواعد الأندلسية فى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٦ م) . وهكذا لم يأت منتصف القرن السابع الهجرى حتى كانت معظم بسائط الأندلس وقواعدها التالدة قد سقطت فى يد أسبانيا النصرانية فى وابل من الهزائم والمحن الفاجعة ، وانكمشت رقعة الوطن الأندلسى التى كانت حتى أوائل القرن السابع تضم نحو نصف الجزيرة الأسبانية ، إلى حيز ضيق يقع فى أواسط جنوبى الأندلس فيما بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وهو الحيز الذى استطاعت مملكة غرناطة الصغيرة الفتية أن تستقر فيه وأن تتوطد . وقد شاءت العناية الالهية أن تسبغ بقيام هذه الدولة الاسلامية الصغيرة على الأندلس حياة جديدة استطالت أكثر من قرنين .

وقد لبثت مملكة غرناطة التى نشأت فى كنف المحنة وفى غمر الفوضى قبل أن تتوطد دعائمها ، مدى حين مطمح أنظار أسبانيا النصرانية ، وكان القضاء عليها يلوح أمراً ميسوراً محققاً ، حتى إن زعيمها ومنشئها محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر لم ير مناصاً من الخضوع لملك قشتالة والاعتراف بطاعته ، وأداء الجزية له استبقاء لسلطانه ، واحتفاظاً بأراضيه . واضطر ابن الأحمر أن يجرع الكأس المرة إلى الثمالة ، وأن يعاون النصارى وفقاً لتعهداته غير مرة فى الاستيلاء على القواعد والثغور الاسلامية الخارجة عن حوزته ، فعاونهم فى الاستيلاء على أشبيلية وعلى قادس وشذونة وغيرها ، واضطر بعد ذلك فى سنة ٦٦٥ هـ أن يشترى مهادنة ملك قشتالة ومسالمته بالنزول له عن عدد كبير من القواعد والحصون ، منها شريش ومدينة والقلعة وغيرها . وقيل إن ماأعطاه ابن الأحمر يومئذ من البلاد والحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع معظمها فى غربى الأندلس . وكان لهذه المواقف والتضحيات المؤلمة أعمق وقع فى الأمة الأندلسية ، وكانت ترى يومئذ نذر السقوط النهائى ماثلة فى الأفق تكاد تنقض عليها فى أية لحظة .

وقد أثارت هذه المحن التى توالت على الأندلس فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها ، أعنى أواسط القرن السابع الهجرى ، لوعة الشعر والأدب . ونظم

شاعر العصر أبو البقاء صالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة التى مازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لانجاد الأندلس وغوثها . وإليك بعض ما جاء فى هذه المرثية الشهيرة التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شئ إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لاعزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الاسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان (١)

---

(١) راجع هذه المرثة البليغة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و ٥٩٥ وأزهار الرياض ج ٢ ص ٤٧ - ٥٠ .

وما زالت مرثية أبى البقاء رغم توالى العصور عنواناً لمحنة الأندلس . بيد أن هناك خطأ شائعاً حول العصر الذى عاش فيه صاحبها ، وحول الظروف التى قيلت فيها . والفكرة الذائعة هى أنها قيلت فى سقوط الأندلس النهائى أو على الأقل قبيل نهاية الأندلس بقليل . وقد وقع المقرى صاحب نفح الطيب فى هذا الخطأ ، فوصف ناظمها صالح بن شريف فى كتابه أزهار الرياض بأنه خاتمة أدباء الأندلس (١) وذكر فى نفح الطيب أن أبياتاً أخرى أضيفت إلى القصيدة تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرها ، وهى ليست من نظم صاحبها لضعفها بالنسبة لروعة القصيدة ، ولأن أبا البقاء توفى قبل سقوط غرناطة (٢) وهو مما يدل على اعتقاد المقرى بأن أبا البقاء عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة (أواخر القرن التاسع الهجرى) . بيد أننا عثرنا فى كتاب « الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية » على ما يبدد هذا الخطأ الشائع . وقد وضع كتاب « الذخيرة السنية » مؤلف مغربى مجهول عاش فى عصر السلطان ابن سعيد المرينى (٧١٠ هـ — ٧٣١ هـ) وأورد فيه قصيدة أبى البقاء برمتها وذكر أنه وضعها لمناسبة نزول ابن الأحمر لملك قشتالة عن عدد كبير من القواعد والحصون الأندلسية فى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) (٣) . وإذن فقد كانت مرثية أبى البقاء معروفة ذائعة منذ أواخر القرن السابع الهجرى ، وقد عاش أبو البقاء فى هذا العصر أو قريباً منه ، فى أوائل أيام مملكة غرناطة . ويبدو فوق ذلك من سياق القصيدة وذكر القواعد الأندلسية التى تندبها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وأشبيلية ، وهى القواعد التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنتى ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ أنها قيلت فى المحنة الكبرى التى فقدت الأندلس فيها معظم قواعدها القديمة . والظاهر أن المقرى لم يطلع فى عصره على كتاب « الذخيرة السنية » بالرغم من اطلاعه على كثير من المصادر والوثائق الأندلسية الأخرى التى كانت معروفة فى عصره ولم تصل إلينا .

وعاشت مملكة غرناطة بعد ذلك زهاء قرنين تحمل بقية التراث الأندلسى ، بيد أنها كانت ضعيفة مهيضة يهتز مصيرها فى مهب الريح ، وترقب المصير

---

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ .
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ .
(٣) راجع كتاب « الذخيرة السنية » (الجبراء سنة ١٩٢٠) ص ١٢٧ .

المحتوم يلوح لها بين آونة وأخرى . وكان سقوط غرناطة آخر القواعد الأندلسية فى يد النصارى فى سنة ٨٩٧ ﻫ (١٤٩٢ م) خاتمة احتضار طويل الأمد . ومع ذلك فقد كانت لمحنة الأندلس المؤلمة ونهايتها المحزنة وقع عميق فى جنبات العالم الاسلامى ولا سيما فى أمم المغرب فى الضفة الأخرى من البحر . غير أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحى الشعر كما أثارته من قبل سقوط الثغور والقواعد الأندلسية أيام كان للدولة الاسلامية بقية من القوة والأمل . ذلك أن دولة الشعر الأندلسى كانت قد انهارت منذ بعيد ، وعقدت المحنة الغامرة كل لسان . ومع ذلك فقد صدرت فى رثاء الأندلس نفثات مؤثرة . ومن أشهر المراثى التى نظمت عقب المحنة بقليل رثاء مؤثر لشاعر أندلسى مجهول يبدو أنه عاصر حوادث المحنة من بدايتها إلى نهايتها . وإليك بعض ما جاء فى تلك المرثية المشجية التى رتبت وفقاً للوقائع والتواريخ :

أحقا خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
أحقا أخلائى القضاء أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها
فوا حسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى بيت الحرام شطورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا سفرت يسبى العقول سفورها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها

لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلا حجورها
وبلّش قطت رجلها بيمينها ... وفى سريان الداء بان قطورها
وبالله ان جئت المنكب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها
الا ولتقف ركب الأسى بمعالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
محل قرار الملك غرناطة التى ... هى الحضرة العليا زهتها زهورها
تردّى الأسى أعلامها وهى خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها
وبسطة ذات البسط ماشعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شعورها

وما أنس لا أنس المرية إنها قتيلة أدجال أزيل عذورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه وزعزع من أكنافه مستطيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عزائماً على الله فى ذاك النعيم مهورها (١)

ونلاحظ أن الشاعر استهل مرثيته بذكر المرية وهى أول قاعدة أندلسية سقطت فى حرب غرناطة الأخيرة ، وكان سقوطها فى يد النصارى فى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ثم تلتها باقى القواعد التى ورد ذكرها فى القصيدة تباعاً ، كما نلاحظ أنه يردد كثيراً من المعانى التى وردت فى مرثية أبى البقاء الرندى ، من انطفاء نور الاسلام فى القواعد الذاهبة ، وسبى المحصنات بصور مثيرة ، وأمثالها من المعانى التى لا تكاد تخلو منها أية مرثية أندلسية .

هذا وقد صدرت عن أدباء المغرب فى الضفة الأخرى من البحر طائفة كبيرة من المراثى البليغة فى نعى الأندلس والاشادة بفضائلها ، والبكاء على محنتها وفداحة الخطب الذى نزل بها . وكان شعراء المغرب لقربهم من مسرح الحوادث ، ووقوفهم على كثير من الأخبار والسير الفاجعة عن إخوانهم فى الأندلس ، أشدمن غيرهم تأثراً بالمحنة وأكثرهم إفاضة فى ندب ويلاتها (٢)

محمد عبد الله عنان

(١) نشر هذه المرثية وهى فى أكثر من مائة بيت أحد أدباء الجزائر مقرونة بترجمة فرنسية تحت عنوان *Une élégie andalouse sur la guerre de Grenade* وذكر الناشر أنه نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ فى شعبان سنة ٨٩٧ هـ (يونيه سنة ١٤٩٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة ببضعة أشهر . والظاهر أنه حينما وضعت هذه القصيدة كان الاسبان قد بدأوا محاولاتهم الأولى لتنصير المسلمين .

(٢) نقل إلينا المقرى فى أزهار الرياض بعض هذه المراثى المغربية ، ومن ذلك قصيدة أعد بن محمد الصنهاجى المشهور بالدقون (ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها)